العزوبية المكرسة

الأب مارون لحام ١٩٩٥/١١/٢٢

أقل ما يمكن أن يقال اليوم عن حياة العزوبية المكرسة هو أنها طريق قداسة تماما كما أن الزواج طريق قداسة. فنحن انتهينا، سنوات بعد المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني، من النقاش الأبدي حول أي من الحالتين أفضل. وخير ما يقال هو أنهما طريقان مختلفان ومتوازيان والحكم في الأفضلية بينهما يعود إلى الشخص الذي يعيش هذه الحالة أو تلك وفي كيفية عيش هذه الحالة أو تلك. فالزواج والعزوبية المكرسة حالتان تعنيان حقيقة تفوقهما سمواً وروحانية، والتي هي ملكوت الله.

هنالك مشكلة في انتقاء الكلمة المناسبة للحالة التي نحن بصددها والتي هي ليست حالة الزواج. فالكلام عن العفة مزدوج لأن فضيلة العفة مطلوبة من المكرس كما هي مطلوبة من المتزوج. وكلمة البتولية كلمة غامضة لأن البتولية في عقلية اليوم مرتبطة بالمعنى الفيزيولوجي أكثر منها بالمعنى الروحي. نفضل الكلام عن العزوبية التي يمكن أن تكون عزوبية فقط - والأمثال كثيرة - أو عزوبية مكرسة. وهذا هو حال المقدمين على الرسامات المقدسة في الكنيسة اللاتينية.

* في الكتاب المقدس

الحقيقة الأولى والأساسية هي حقيقة الزواج. فالإنسان مدعو لأن يصبح شريكاً لله في الخلق من خلال الزواج. لذا فحقيقة الزواج هي أكثر الحقائق كرامة وبركة. كرامة لأنه يشرك الخليقة في عمل الخالق وبركة لأنه لا الخطيئة الأصلية ولا الطوفان استطاعا أن ينكرا على الإنسان كونه "ذات حقيقة جنسية" sexué، أو "اثنان يصبحان واحداً". وهذه الحقيقة نفسها هي التي رفعها المسيح إلى مرتبة سر بحضوره عرس قانا الجليل. سر: أي علامة لحقيقة أسمى وهي علاقة الله بشعبه.

* العهد القديم

الزواج حقيقة أساسية وضرورية. ضرورية إيمانياً بسبب الوعد بميلاد المسيح من الشعب المختار. من هنا عار أن تكون المرأة عاقراً أو ألا تتزوج لأنها لا يمكن والحالة هذه أن تصبح أماً للمسيح المنتظر. فالزواج بركة إلى حد أن اللغة العبرية تفتقر إلى كلمة تعبر عن حالة "غير المتزوج". الفكرة الوحيدة عن البتولية التي كانت مطلوبة هي بتولية الفتاة إلى أن تصل إلى الزواج. وفي نفس المعنى يحرّم الخصيان الدخول في الجماعة (تثنية

٢٣، ٢ - ٤). والتعليم اليهودي يسير في نفس الخط. "الإنسان غير المتزوج ينتقص صورة الله فيه". وهكذا اكتسب الزواج في العهد القديم بعداً دينياً جعله أسمى بكثير من حالة غير المتزوج.

بيد أن العفة مطلوبة عند الاقتراب من السر الإلهي (موسى بعد رؤية العليقة الملتهبة)، (حزقيال ١٩/ ١٥، أحبار ٢٢،٤). وتفسير ذلك هو أن الزواج صورة عن السر الإلهي والصورة يجب أن تختفي عندما تحضر الحقيقة. أما إرميا الذي بقي عازباً فتفسير ذلك هو كي يكمل صورة العذاب والنقص والرذل الذي اتصفت به نبؤاته. ارميا الأعزب والمتألم علامة على اقتراب يوم الرب الذي سيعيد كل شيء إلى نصابه.

أما عن "رهبان " قمران، فتفسير كونهم غير متزوجين مردّه إلى كونهم في حالة خدمة مستمرة للرب وفي أهبة مستمرة للحرب المقدسة ولكونهم جماعة تسهر باستمرار لتنتظر المسيح.

* العهد الجديد

مريم هي الحلقة بين خطي التفكير. ففيها تتحقق الولادة بمعناها القديم ممثلة باكتمال سلسلة الولادات المذكورة في متى ولوقا. وفيها أيضاً يتحقق معنى الولادة الروحية الذي هو صورة عن اكتمال الأزمنة. فسر التجسد يجعل من الزواج المادي صورة عن حب المسيح الروحي لكنيسته. لذا يدعى المسيح بـ "العريس". وهكذا يفتح العهد الجديد الباب لطريق آخر لإرضاء الله. وفي النصوص الأساسية الثلاثة التي يتكلم فيها المسيح عن الزواج يذكر أيضاً العزوبية (متى ٢٢، ٢٣ - ٣٣/ متى ١٩، ٣ - ١٢/ لوقا ١٨، ٢٩ - ٣٠) ثم ١ كو ٧.

هكذا تأخذ العزوبية مكانها. فالمهم ليس الزواج أو عدمه بقدر ما هو طاعة الرب. ويرى بولس في حاله عدم الزواج مجالاً أوسع لذلك، على الأقل من الناحية العملية. هذه هو إذاً المبدأ الجديد: ليس المهم الدعوة الموضوعية (الزواج أو عدم الزواج) إنما الجواب على هذه الدعوة. وهكذا بدأت تظهر الخطوط التي ستقود فيما بعد إلى اعتبار العزوبية المكرسة خيراً من الزواج. فبينما الزواج سر (علامة)، العزوبية المكرسة ليست علامة لأنها من ضمن أسرار الملكوت أي مرحلة ما بعد العلامة. فالأعزب هو الذي يسهر في انتظار الملكوت والذي تحرر من كل ما يلهي القلب والحياة عن الملكوت... (بولس) .

* تطور العزوبية المكرسة التاريخي

العزوبية ظاهرة إنسانية قبل أن تكون ظاهرة روحية. فهناك من يعرض عن الزواج لأسباب لا تمت إلى الروحانيات بصلة. من ٦ - ١٠٪ من سكان أوروبا (ممن هم في عمر الزواج) اعرضوا عن الزواج (عام ١٩٧٠)، منهم ١ % فقط أعرض عنه لأسباب روحية (تكريس). كما يجدر القول أنه حتى العزوبية المكرسة ليست وقفاً على الدين المسيحي فقد عرفتها الهندوسية والبوذية والديانات الوثنية عند الرومان.

- الكنيسة الرسولية.

عرفت الكنيسة الرسولية خطين من الحياة. الشكل الذي أخذته حياة العزوبية المكرسة كان خط "الزواج الروحي" حيث كان يعيش رجل وامرأة كإخوة في إطار بيت واحد ويتفرغان للصلاة والتعبد. تظهر هذه الحقيقة في ١ كو. والظاهر أن بولس ينصح بالتمييز بين حالتي الحياة حتى في الإطار الخارجي منعاً للالتباس.

- القرن الثاني.

أخذ بعض الأشخاص في نهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني يعيشون حياة العزوبية المكرسة" احتراماً لجسد الرب" (اغناطيوس الأنطاكي). ومع ذلك فلم يكن لهم بعد إطار اجتماعي خاص بهم وكانوا يُضمون إلى الأرامل. يتكلم يوستينوس عن أشخاص اعرضوا عن الزواج ليكونوا للرب بشكل أكبر. في نهاية القرن الثاني تبدأ المقارنة بين الحالتين ويبدأ الميزان يميل لصالح العزوبية المكرسة إلى حد أن اكليمنضوس الإسكندري دافع عمن يحتقرون الزواج وما يتضمنه من أعمال على مستوى الجسد مقارنة بحياة العزوبية المكرسة. وحوالي سنة ٢٠٠ أخذت "البتولات المكرسات لله" يحملن غطاء الرأس إشارة إلى "زواجهن" الروحي من الحمل.

- القرن الثالث.

يعتبر اوريجينوس الزواج والعزوبية المكرسة هبة من الله تعطي النعمة. ويقول أن المهم ليس نوع الحالة التي يعيشها الإنسان بل قدر المحبة التي يعيش فيها حالته. ومع ذلك يميل إلى تفضيل العزوبية المكرسة لأنها تحقيق "الزواج الروحي بين المسيح وكنيسته لا صورة عنه فقط كالزواج". العزوبية المكرسة هي القربان الثالث المقدم لله بعد قربان الرسل والشهداء.

- نوفيسيانوس أول أعطى لحياة العزوبية المكرسة لقب "الحياة الملائكية".

- طرطليانوس وقبريانوس يضعان العزوبية المكرسة أعلى من الزواج بدرجات. فهي "الزواج مع المسيح" و "امتلاك مجد القيامة" و"مساواة مع الملائكة". قبريانوس أول من استعمل تعبير "البتولية" للدلالة على العزوبية المكرسة.

- يسير أثناسيوس في نفس الخط ويقول أنه لا يجب احتقار حياة الزواج لأنها طريق للحصول على النعمة في العالم بينما العزوبية المكرسة صورة عن قداسة الملائكة ووسيلة للحصول على نعم وخيرات أعم وأكبر.

- القرنان الرابع والخامس.

أخذت العزوبية المكرسة مكاناً مرموقاً وألقاباً عالية. وبعد انتهاء زمن الاضطهادات أصبح المكرسون في العزوبية خلفاء الشهداء في روحانية الكنيسة. بيد أن آباء الكنيسة، مع تفضيلهم المبدئي للحياة العزوبية المكرسة، ظلوا يعتبرون الزواج طريقاً للقداسة أيضاً وانبروا باستمرار لكل خط يقلل من قدسية الحياة الزوجية (يوحنا الدمشقي). بدأت تظهر أيضاً علامات خارجية، روحية وعملية عن قبول العزوبية المكرسة وصلاحيتها (المحبة وخدمة الكنيسة).

- يعتبر امبروزيوس حياة العزوبية المكرسة سراً لأنها مشاركة غير منظورة في الكنيسة - جسد المسيح - البتول والخصبة.

- يضع ايرونيموس العزوبية المكرسة فوق الزواج ويقبل الزواج لأنه يسمح بإنجاب أولاد وبنات يكرسن أنفسهن في العزوبية. فالزواج هو علامة الدهر الحالي بينما العزوبية المكرسة علامة الدهر الآتي.

- اغسطينوس يدافع عن الزواج أمام الهراطقة لكنه يضع العزوبية المكرسة أعلى من الزواج. فالمتزوج يلد البنين بينما المكرس يلد المسيح. ويتمنى أن يعتنق جميع الناس حالة العزوبية المكرسة لاستعجال قدوم المسيح.

* من القرون الوسطى إلى أيامنا

اكتمل خط اعتبار العزوبية المكرسة أفضل من الزواج. اعتبر اللاهوت المدرسي Scolastique أن البتولية نعمة تعطى مع المعمودية. يقول توما الأكويني:"ما من شك أنه يجب اعتبار حالة العزوبية المكرسة أفضل من حالة الزواج". وعلى هذا اعتمد المجمع التريدنتيني حينما حدد "من قال أنه يجب تفضيل حالة الزواج على حالة العزوبية المكرسة فليكن محروماً".

وحتى المجمع الفاتيكاني الثاني يتكلم عن العزوبية المكرسة بتعابير تفضلها على حالة الزواج. لكن بعد المجمع اكتشف اللاهوت الروحاني أن التطور العقائدي والروحاني كان ذات اتجاه واحد ولصالح العزوبية المكرسة. بدأ خط جديد يعتمد على العهد الجديد ويعتبر أن الحالتين تفسر أحداهما الأخرى وتعطيها قيمة، وذلك دون مقارنة أو تفضيل. فهما نعمتان متميزتان يعطيهما الله شعبه لتحقيق القداسة التي يدعو إليها كل إنسان.

* العزوبية المكرسة في عقلية اليوم

العزوبية المكرسة أمر غير مفهوم في عالم اليوم. ردود الفعل تجاه عزوبية الكهنة تتأرجح بين عدم الصدق والتشكك والاستغراب، على الأقل في الغرب. نحن في حالة "من له أذنان سامعتان فليسمع". بيد أنه تجدر

الملاحظة أن المجتمع نفسه الذي لا يتفهم معنى العزوبية المكرسة هو نفسه الذي فقد معنى الزواج كالتزام جدي ودائم.

* العزوبية المكرسة دعوة

العزوبية المكرسة دعوة داخلية. هي "نعم" لصوت الله الذي يدعو بقوة كلمته وكلمة الله قادرة على كل شيء. وهذه الدعوة الداخلية تظهر خارجياً وتصبح رسالة. وهذا هو الفرق بين العزوبية كنمط حياة والعزوبية المكرسة. والمدعو لا يعتمد على نفسه ولا على قوته ولا على إرادته في عيش مستلزمات هذه الدعوة، بل على قوة الروح القدس الذي يلتزم فيه ومعه. هكذا تصبح الدعوة عهداً بين الله والإنسان. عهد يلتزم به الإنسان دون شك ويلتزم به الله، وهنا منبع القوة. والتزام المكرس يترجم في محبة تعاش يوماً بعد يوم، في إتمام الواجب اليومي وفي الحرص على هبة العزوبية المكرسة التي يحبها لكونها جزءاً من محبته الخالصة لله نفسه.

لا شك أن الإخلاص للعزوبية المكرسة ليس أمراً سهلاً. لكن هذا الإخلاص يعاش في الإيمان والصلاة والانتباه الحذر. الإيمان أولاً بقدرة الله اللامتناهية وهذا الإيمان هو الذي يجدد نعمة العزوبية يومياً. الصلاة ثانياً التي تساعد على المحافظة على دينامية التكريس اليومي الفرح لله. والانتباه الحذر أخيراً- ولو أنها كلمة ثقيلة- لأن التكريس الكامل لله أمر لا يجوز العبث فيه. ففي التعامل مع أمور في غاية الحساسية والروحانية كالعزوبية المكرسة لا بد من قدر من "النظافة الروحية" التي تسمح بعيش ما التزم الإنسان به. هذه الشفافية الروحية هي فقط التي تسمح بحياة مكرسة وفرحة. فالجواب الوحيد على صوت المحبة التي تدعو هو المحبة التي تعطي كل شيء بفرح.

* العزوبية المكرسة ترك (هجر)

وهذا الترك لا يقتصر على التنازل عن الحياة الزوجية وحياة العائلة، بل يتخطاه إلى معنى جديد من الزهد أو التجرد (الفقر) في سبيل اتباع المسيح. وهذا الفقر هو بداية منطق جديد في العلاقات بحيث يحصل المكرس على مئة ضعف من الأخوة والأخوات والخيرات التي تركها. وهذا الزهد/ الفقر هو الذي يسمح بالحياة الجماعية التي لها معنى روحي عميق (واخروي) إن عيشت كما يجب، أي حياة جماعية (مع بعض) لا على أساس اللحم والدم بل على أساس الدعوة الواحدة والرسالة الواحدة. وهذا الكلام يتناقض مع بعض التيارات الحديثة التي تتكلم عن "الجنس كلغة ووسيلة تفاهم" مع كل ما يتبع ذلك.

أما العواطف والأحاسيس، فحلها ليس في كبتها بقدر ما هو في التعامل الناضج معها وفي النظر إليها بهدوء وموضوعية وفي توجيهها إلى محبة لمن يعمل بمشيئة الله ويسير في محبته. بدون هذا الارتداد في العواطف لا يمكن أن يعيش أحد عزوبية مكرسة بفرح ونضوج.

* المعنى المسيحياني والكنسي والاخروي للعزوبية المكرسة.

+المعنى المسيحاني.

اختيار العزوبية المكرسة يبنى على محبة المسيح ومحبة شخص المسيح. فالمكرس لا يكتفي باتباع المسيح وطاعته بل يحبه ويبني معه علاقة شخصية متينة (من ترك أباً أو أماً.... من أجلي...). والمسيح بقي أعزباً ليتم رسالته وليكون بأكلمه لأبيه. وهذا ما يعمله المكرس تمثلاً بالمسيح. وهكذا تصبح أية حقيقة أخرى أمراً نسبياً أمام مركزية المسيح في حياة المكرس. نسبي يعني أهمية أقل كما يعني أن المسيح هو الميزان الذي يحكم أهمية باقي الأمور ومكانها في سلم الأولويات.

+المعنى الكنسي.

إن المواهب على أنواع لكن الرب واحد. وهدف المواهب المختلفة حسب مار بولس هو بنيان الجماعة. من هنا هدف هبة العزوبية المكرسة لا يقتصر على خير الشخص المكرس نفسه بل على حياة الجماعة. هدف العزوبية المكرسة هو في الخدمة والتبشير. لذا تهدف العزوبية المكرسة إلى التجرد حتى عن العزوبية كعزوبية والالتزام في حياة الكنيسة وفي حياة الجماعة. وما يميز خدمة المكرس عن غيرها ليس فقط في الوقت المكرس للخدمة بل في نوع الشهادة المعطاة من خلال حياة التكريس. الشهادة بقدرة الله التي تجعل كل شيء جديداً. وفي ذلك نظرة جديدة لربط الالتزام الرسمي بالعزوبية المكرسة بدرجة الشماسية الانجيلية Diaconie.

+المعنى الاخروي.

العزوبية المكرسة إعلان عن الملكوت الآتي ونبوءة بعودة المسيح. ففي الملكوت لا يتزوجون ولا يزوّجن. لذا قلنا أن الزواج حقيقة زائلة لا أبدية. وعندما يدعو المسيح إلى اتباعه في طريق العزوبية المكرسة يعني بشكل من الأشكال العالم الذي يصبح الله فيه "كلا في الكل". وهذا الكل في الكل يبدأ منذ الآن في حياة من اعتبر أن الله يكفيه وأنه يسمح له بتحقيق ذاته وخلاص نفسه من خلال التكريس والفقر والزهد.